**المحور الثاني**

**مظاهر الحياة الثقافية و العلمية في الحواضر الإفريقية:**

1. **مؤسسات التعليم:**

بعد انتشار الإسلام في غرب افريقيا و قيام دول سودانية اسلامية مثل غانة و مالي وسنغاي، تحولت تلك المراكز التجارية و السياسية إلى مراكز علمية بعدما اقيمت بها مساجد تحولت الة جامعات و مراكز إشعاع علمي، حيث استقطبت العلماء و الطلبة من كل بلاد السودان، حيث ذكر السعدي انه بعدما اسلم سلطان جني الذي يدعى كنبر حضر إسلامه 4200 عالم كانوا موجودين في مدينة جني([[1]](#footnote-2))، و هو رقم كبير يدل على أهمية المدينة من الناحية العلمية. و لو أن المقصود بالعالم عند السعدي هو معلم الصبيان، أي حتى معلم في الكتاتيب كان يطلق عليه اسم عالم**([[2]](#footnote-3))**.

إن هذا العدد من المعلمين و القراء المنتشرين في أرياف و مدن مملكة جني يدل أيضا على انتشار التعليم و الاهتمام به خاصة في عهد الاسقيين و هو الفترة التي كان يقصدها السعدي بالدراسة. فالتعليم كان موجودا حتى في الفترات السابقة أي فترة حكم سوندياتا كيتا**([[3]](#footnote-4))،** خلال القرن13م، أين كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف(**[[4]](#footnote-5)**).

لكن مع ظهور الممالك السودانية الإسلامية، و ظهور ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية(**[[5]](#footnote-6)**).

وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم الملوك القرآن وبعض شرائع الإسلام واللغة العربية ، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك(**[[6]](#footnote-7)**)، ثم تطور التعليم ليشمل علوم اخرى، و مستويات اعلى.

و كانت مؤسسات التعليم في حواضر غرب إفريقيا تمتاز بظاهرة عامة و هي ارتباطها الشديد بالدين، حيث كانت في البداية المدارس مرتبطة بالمساجد و ملحقة بها، فالي جانب كل مسجد كان هناك غرفة او غرفتان لتعليم الأولاد، و هناك أمكنة أخرى ليبيت فيها الطلاب القادمين من البلاد البعيدة، و هناك مساجد خصصت كلها لتلقي العلم كانت تعقد فيها حلقات لمختلف العلوم الشرعية**[[7]](#footnote-8)**.

**2.مراحل التعليم:**

مع ظهور الحواضر الكبرى في عهد امبراطورية مالي و سنغاي ظهرت معه المؤسسات التعليمية الكبرى ذات المستوى العالي مثل جامع جنجربير و سيدي يحي في تنبكتو و جامع سنكاري في مدينة جني، حيث كانت تمر بمراحل تعليمية تبدأ من الابتدائية إلى غاية المرحلة العليا التي يتخرج منها الطالب عالما.

**أ. مرحلة التعليم الابتدائي (الكتاتيب):**

قبل الحديث عن هذه المرحلة، تجب الإشارة إلى أنَّ عملية التعليم تختلف جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: “إنَّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات...واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات(**[[8]](#footnote-9)**).

وتعد المرحلة الابتدائية أساسية للطلاب، حيث تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما يتزودون فيها بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها،كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية(**[[9]](#footnote-10)**)،  وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الخامسة حتى مرحلة الصبا،  وكانت مدة بقاء الطالب فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية.. وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية. إنَّ هذه المرحلة من التعليم تقوم بها الكتاتيب، وقد اختلفت مسمياتها في إفريقيا الغربية باختلاف قبائلها؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم “دارا”،وقبائل بلاد شنقيط (موريتانيا) يعرفونها بـ “المحظرة، أما قبائل التكرور فيدعونها “ديا لجانتي”،في حين تسمي قبائل أخرى معلم الكتاتيب  “معالام”، وهو تحريف للفظ معلم**([[10]](#footnote-11))**.

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر(**[[11]](#footnote-12)**). كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة(**[[12]](#footnote-13)**). وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري(**[[13]](#footnote-14)**).

**ب. مرحلة التعليم الثانوي:**

فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي،كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة(**[[14]](#footnote-15)**). بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري(**[[15]](#footnote-16)**). كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق(**[[16]](#footnote-17)**).

وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة(**[[17]](#footnote-18)**). بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن(**[[18]](#footnote-19)**).

**ج. مرحلة التعليم الجامعي(او العالي):**

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية، و الدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت. ومن أشهر المساجد التي اهتمت بالمرحلة العالية: مسجد سنكري. وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنَّ الأسكيا الحاج محمد كان يخصص أوقافاً لتنفق على الطلاب المتفرغين للعلم والدراسة(**[[19]](#footnote-20)**).

و كانت تتم هذه المرحلة في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج(**[[20]](#footnote-21)**).

وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.(**[[21]](#footnote-22)**)أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.(**[[22]](#footnote-23)**)

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو وجدها تعج بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها(**[[23]](#footnote-24)**).

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى.(**[[24]](#footnote-25)**)

عندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي.(**[[25]](#footnote-26)**)وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة(**[[26]](#footnote-27)**).

كما جذبت جامعة تمبكتو بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ /1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ/1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة.(**[[27]](#footnote-28)**) وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا(**[[28]](#footnote-29)**).

وكان التعليم في جامعة سنكري يشمل المناهج الدراسية التي كانت تتضمن: التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العقلية، وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية. وقد اشتهرت جامعة تنبكت بتدريس المذهب المالكي، الذي كان يقوم بتعليمه علماء ضالعون في مادته، سواء من الإفريقيين أو الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين يفدون على هذه الجامعة من كل مكان من مناطق إفريقيا الغربية المجاورة(**[[29]](#footnote-30)**).

1. **لتعليم المهني (الحرفي):**

رغم قلة انتشار هذا النوع من التعليم واقتصاره على مهمة الخياطة وبعض المهن الحرفية الأخرى؛ كصناعة السيوف والحراب؛ فإنَّ التدريس في هذا النوع كان يتولاه معلمون متخصصون عُرفوا بـ “الشيوخ الرؤساء”، حيث كان التدريس والعمل يتم في بيوت وفي مقر عمل شيوخ المهنة. وقد ذكر المؤرخ محمود كعت أنه يوجد في مدينة تنبكتو وحدها 26 بيتاً من بيوت الخياطين، ولكل بيت من تلك البيوت شيخ معلم، وقد بلغ تلاميذهم ما بين 75 إلى 100 تلميذ(**[[30]](#footnote-31)**).

1. **الإجازات العلمية و الشهادات:**

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. و وجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، هي: شهادة السماع، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها. وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته شروحها. ثم الإجازة الكاملة، وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون.

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً، ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها **([[31]](#footnote-32))**.

ولا تُعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متمايز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وتتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأنه حضر عليه مواد متعددة لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يحوز له إن كانت للمدرس كتب من تأليفه، وما يحوز له من غيره إن كان الكتاب من وضع شخص آخر. ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على الإنصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيغ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقري في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في 15 ربيع الآخر عام 1010 للهجري/ 13 أكتوبر 1601م.

ولقد تشابهت الإجازات بين إفريقيا الغربية والمغرب بفضل الاتصال بين علمائهما، وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبكتو وفقهاء المالكية السودانيين أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين: **إجازات خاصة** تهم فناً واحدا أو عدة فنون متحدة الموضوع، **وإجازات عامة** تشمل فنوناً وعلوماً متباينة، ومن أمثلة النوع الأول: الإجازات القرآنية و الحديثية، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف روايات حديث. أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب(**[[32]](#footnote-33)**).

**5. حركة التأليف و المؤلفين:**

شهدت الحواضر الثقافية في غرب إفريقيا حركة تأليف واسعة كان وراءها علماء من غرب إفريقيا تكوَّن معظمهم في جامعات السودان الغربي كتنبكتو و جني و غاو، و لقد شملت حركة التأليف ميادين مختلفة نصنفها كما ياتي:

**أ.في التاريخ:**

الشيخ القاضي(محمد بن محمود كعت)،الذي ولد عام 868هـ/1468م بمدينة تمبكتو**[[33]](#footnote-34)**، وعاصر السلطان أسقيا الحاج محمد التوري، الذي عاش بين 898هـ و925هـ، وألف كتابه المشهور في التاريخ والمعروف بـ « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»، والذي بدأ بتأليفه سنة 925هـ/1519م. وكان هذا الكتاب من أهم المصادر الخاصة بتاريخ السودان الغربي في عهد الإسقيين، خاصة فيما يتعلق بتمبكتو وأوضاعها، والغزو المغربي لسنغاي، وتخريب تمبكتو، وتدهور حالتها. وقد توفي محمود كعت عام 1001هـ/1593م.[[34]](#footnote-35) وأكمل أحفاده من بعده، أحداث السنوات الست المسجلة بعد ذلك بالكتاب. وتميز كتابه بلغة سلسة، ومعلومات غزيرة**[[35]](#footnote-36)**.

**ـــ احمد بابا التنبكتي** من عائلة اقيت الشهيرة في تنبكتو، كتب أكثر من 400 مؤلف، أشهرها نيل الابتهاج بتطريز الديباج و هو موسوعة تراجم لأكثر من مائة عالم في الفقه المالكي، وكذا كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهو مختصر كتابه الأول حيث هذبه وأضاف له حواشي و أسماء أخرى كان قد أغفلها في تطريز الديباج**[[36]](#footnote-37)**، و لديه كتاب معراج الصعود في حكم مجلوب السود.

ومن المؤرخين الذين أنجبتهم بلاد السودان، عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، الذي ولد بمدينة تمبكتو عام 1004هـ/1596م، أي بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي الذي حدث عام 999هـ/ 1591م، وعاش في ظل الحكم السعدي لتمبكتو، حيث عينه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو سنة 1646م ناظرا لخارجيته، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل في أنحاء المملكة، فألف كتابه المشهور ( تاريخ السودان)، الذي أتمه عام 1063هـ/1655م فكان هذا الكتاب أفضل متمم لتاريخ الفتاش عن تاريخ السودان.

كما عرفت مملكة كانم بورنو حركة تاليف مهمة جدا في التاريخ لعل أهمها مؤلفات احمد بن فرتيوا البرنوي و هو مؤرخ البلاط في إمبراطورية كانم الذي ألف كتاب )تاريخ مي إدريس ألوما وغزواته ) وقد كتب هذا التاريخ على حدّ قوله تبعاً لما يراه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمه عمر بن عثمان في عصر سلطانه الملك العادل. وقد ترجمه المؤرخ الألماني بالمر(Palmer) إلى الإنجليزية.

ومنها كتاب )ديوان سلاطين كانم) لمسفرمه عمر بن عثمان السابق الذكر، يضمّ هذا الديوان أهمّ الوثائق، وأسماء السلاطين في إمبراطورية كانم برنو الإسلامية القديمة، ومنها غزوات كانم، وكتاب« أخبار أصل فلات برنوي » وغيرها**[[37]](#footnote-38)**.

ومن أهمّ الوثائق التاريخية في البرنو الإسلامية « المحارم »، وهي المراسيم التي كان يصدرها الحكام في حق العلماء، وقد استفاد المؤرخون منها، الأمر الذي جعل المؤرخ الألماني بالمر يترجمها إلى الإنجليزية في كتابه )صحارى برنو The Borno Sahara، كما ترجم عدداً غير يسير من الرسائل العربية البرنوية والمعاهدات، وبعض القصائد في كتابه الثاني تحت عنوان« مذكرات سودانية « Sudanese Memoirs الذي يقع في ثلاثة أجزاء**[[38]](#footnote-39)**.

فالقيمة التاريخية في هذه الآثار العربية البرنوية لا شكّ فيها، وإن تضاؤل هذه الآثار العربية

النثرية في الإيفاء بشروط تدوين التاريخ على حدّ مفهومها المعاصر؛ لا يُخرج أولئك العلماء من كونهم مؤرّخين؛ لأن الاستفادة مما خلفوا من المعلومات.

**ب.في الأدب:**

**تعتبر اللغة بالنسبة لأي شعب، بمثابة الوعاء الذي يحمل ثقافته وإنتاجه الأدبي والفكري، لكن اللغة العربية تمتاز بالإضافة إلى كل ذلك، بأنها أداة للصناعة الأدبية، والبلاغة التي ارتبطت بحضارة العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن ليجعل منها معجزة جمعت جمال الكلمة، وبلاغة القول، وحملت رسالة إنسانية عظيمة، فكان الأدب العربي أول ما نقلته هذه اللغة أينما حلت بعد القرآن. فلم يكن للأفارقة في السودان الغربي قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلها الخلف عن السلف شفهيا، وتتمثل أغلبها في ذكر بطولات الأجداد، وأصول القبائل، والملوك وأنسابهم، بالإضافة إلى صراع الإنسان مع الطبيعة([[39]](#footnote-40)).**

**فكان الأدب السوداني إذن، أدبا غير مكتوب، ومعظم التراث الأدبي تم الحفاظ عليه عن طريق الروايات الشفهية، إلى غاية مجيء الإسلام، واحتكاك السودانيين بالتجار المغاربة والفقهاء، وخاصة في المدن الهامة مثل تمبكتو، جاو، جني، ولاتة، وغيرها، حيث كان يلتقي العلماء والتجار والقضاة، فتمكن أهل السودان من تشكيل نخبة حملت آداب اللغة العربية[[40]](#footnote-41). وقد سبق وأن ذكرنا البلاغة التي ميزت الأديب الكانمي، أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الأسود، وشعره الذي قاله عند ملاقاة أبي يوسف المنصور الموحدي.**

**إن** المتصفح لتاريخ اللغة العربية وآدابها في هذه البلد؛ يعرف أن بعض العلماء والرجال على مرّ عصورها قد أسهموا في ترقية العربية وتطويرها في إفريقيا، وتركوا أنواعاً كثيرة من الكتابة، مثل الرسائل الديوانية بين العلماء، والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة، وبعض الوثائق التاريخية، ومن الممكن تقسيم هذا الفن الأدبي )النثر) الذي أنتجه علماء هذه الديار إلى فنيّ وعلميّ، فالأول استعملوه في رسائلهم، والثاني في تأليفهم.

أما النثر الفني؛ فخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الفودي وبين فارس الكانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ونورد هنا نصّاً من رسالته إلى الزعيم الفلاني الشيخ عثمان بن فودي، قال فيها: «من المتعفّر بتراب الذنوب، والمتدثّر بجلباب العيوب، العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور، أنه لمّا ساقتني المقادير لهذا الإقليم؛ وجدتُ نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألتُ عن السبب، فقيل: بغي وقيل: سنّة، وتحيّرنا في الأمر، فكتبتُ لإخوانكم المجاورين لنا وثيقةً، طلبتُ منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدّد، وعدّوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه[[41]](#footnote-42).

ومن أمثلة الرسائل الديوانية كذلك؛ رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوق في القاهرة سنة 894 ه تقريباً، والتي ورد فيها ما يأتي: « بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: الحمد لله الذي جعل الخط تراسلً بين الأباعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات، ومن المتوكّل على الله تعالى، الملك الأجلّ المستنصر بالله، المنصور في كلّ حين وأوان، ودهر وزمان، الملك العادل، الزاهد التّقي النّقي، الأبجد والأمجد الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا ملكه؛ إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة، أم الدنيا، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام.. زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين. وبعد ذلك؛ فإنّا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو عمّي، واسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يُسمّون جذاما وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين»**[[42]](#footnote-43).**

وإذا ألقينا نظرة على ما أوردناه من مثال للإنتاج الهلمي باللغة العربية لعلماء كانم برنو؛ يتضح أن هؤلاء العلماء قد أسهموا بقدر الإمكان في التأليف العربي، وتناولوا فيه مواضيع شتّى، مع هذا فمن الأحسن أن ننتبه إلى سؤال قد يطرح نفسه على الدارس المدقّق، وهو أنه إذا كان لعلماء كانم برنو. تراث عربي**[[43]](#footnote-44)**.

**ج. العلوم الشرعية و العقلية:**

من أشهر علماء غرب إفريقيا تأليفا في هذا المجال و خاصة خلال القرن 16م نذكر احمد بابا التنبكتي الذي ترك لنا حوالي 40 كتاب، حيث عبر عنها بقوله: « وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»**[[44]](#footnote-45)**.

وله كتاب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، و ايضا تنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما كتب تعليقا على أوائل الألفية سماه النكت الوفية بشرح الألفية، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاة، بالإضافة إلى شرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء بالّلهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات**[[45]](#footnote-46)**.

و خلال القرن19م ألف الشيخ عثمان دان فوديو في بلاد الهوسا أكثر من مائة كتاب في العلوم الشرعية و الجهاد و السياسة أشهرها كتاب « إحياء السنة و إخماد الفتنة » و كتاب « السنة و إخماد البدعة » الذي تطرق فيه إلى عدة مسائل تتعلق بالشرع و أركان الإسلام من صلاة و صيام و حج و زكاة، و آداب الطعام و ميراث نكاح و بيوع . و كتاب عنونه بـ «وثيقة الإخوان لتبيين دلالة وجوب إتباع السنة و الإجماع » ، كما كتب أخوه عبد الله في الأدب و الفقه أشهرها كتابه ضياء السياسات و فقه النوازل**[[46]](#footnote-47)**.

**ج – أثر الحياة العلمية على تطور غرب إفريقيا .**

إن ازدهار الحياة العلمية في أي مجتمع سيتبعه حتما ازدهارا في مختلف المجالات المحيطة بالحياة، فالمجتمع في غرب إفريقيا تأثر كثيرا بتلك النهضة العلمية و الثقافية التي شاهدتها حواضره، فكانت التنظيمات و الفنون نموذج عن طبيعة المجتمع، لذلك رأينا انه حدث تحول هام في التنظيمات السياسية و العمرانية و الفنية التي أصبحت هي الأخرى نسخة من مظاهر الحياة الثقافية عموما و التي صبغت بالصبغة العربية الإسلامية.

**1 – أثرها في نظام الحكم والعمران .**

**أ. في نظام الحكم:**

ان انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا أثر تأثيرا مباشرا على نمط الحياة السياسية للشعوب السودانية، فقد نقلها من نظام القبلي ضيق، الذي يقوم على أساس المشيخات يحكمها رؤساء العشائر ، و من نظام سياسي يقوم على اساس وثني يرتكز على طقوس السحر و التنجيم ، إلى نظام سياسي يقوم على الدولة، التي تتضمن إدارة وحكومة ونظاما سياسيا**[[47]](#footnote-48)**.

حيث تأثر ملوك غرب إفريقيا بالنظم الإسلامية، القائمة في المشرق و المغرب السلامين، حيث أصبحوا يقلدون الأمراء المسلمين الذين تأثروا بهم من خلال النماذج التي احتكوا بهم من خلال زياراتهم المتكررة إلى الحج، وكذا الأخبار التي كانت تصلهم عنهم من خلال التجار المسلمين الذين كانت أسواق مالي كتمبكتو، ولاته وجني تعج بهم. بالإضافة إلى احتكاكهم بالعلماء المسلمين، حيث تجسد التأثير العربي الإسلامي في نظام الحكم غرب الإفريقي في المظاهر التالية:

1. **نظام الخلافة:**

يعد نظام الخلافة، أهم مظهر يميز النظام السياسي الإسلامي، حيث يرتكز على السلطة المركزية التي يتولاها أمير المؤمنين الذي تؤخذ له البيعة من الرعية، ويخطب باسمه في صلاة الجمعة و الأعياد، وتضرب باسمه الأختام، ويتخذ من الشريعة الإسلامية منهاجا ودستورا لحكمه.

لذلك حاول ملوك غرب افريقيا الإقتداء بهذه المواصفات، لإعطاء نظام حكمهم صبغة شرعية، بعد أن أصبحوا ينتمون إلى العالم الإسلامي. فكان أهل (سنغاي) إذا ولي منهم ملك، قدم إليه خاتم وسيف ومصحف، يزعمون أن الخليفة الفاطمي أمير المؤمنين قد بعث به إليه**[[48]](#footnote-49)**، لكن دون أن تذكر المصادر التاريخية اسم الخليفة الفاطمي بالتحديد.مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن ذلك مجرد زعم القصد منه ادعاء التولية من طرف أمير المؤمنين، وبالتالي إعطاء حكمهم صفة الشرعية التي توجب الطاعة من طرف الرعية.

ولما كان عهد الإسقيين في مملكة سنغاي، ازداد حرص ملوك جاو على كسب المزيد من الشرعية الدينية لحكمهم، من خلال محاولة افتكاك لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وعدم الاكتفاء بلقب والي الخليفة. حيث استغل ملك سنغاي الإسقيا الحاج محمد التوري سقوط دولة المماليك على يد جيش سليم الأول العثماني، في معركتي مرج دابق في رجب من عام 922هـ/1516م، و الريدانية في محرم من عام 923هـ/1517م**[[49]](#footnote-50)**، ليأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، وهو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب**[[50]](#footnote-51)**.

فخلال زيارة الحاج محمد أسقيا للبقاع المقدسة بغرض أداء مناسك الحج في أواخر عام 900 للهجرة ، مر بمصر، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول عام 923هـ/1517م، وهناك بمصر اجتمع الحاج محمد أسقيا بالخليفة العباسي المتوكل، وطلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان، ويكون خليفة عليها هناك، فجعله الخليفة العباسي نائبا له على من وراءه من المسلمين ببلاد السودان. ولما عاد ملك سنغاي إلى بلده، أقام حكمه على قواعد الشريعة الإسلامية**[[51]](#footnote-52)**.

ويذكر المؤرخ السوداني محمود كعت، أن الحاج محمد اسقيا لما زار مكة، وكان جالسا بحذاء الكعبة مع شريف مكة مولاي العباس الحسني، أخبره هذا الأخير بأنه الخليفة الحادي عشر من الخلفاء الذين اخبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب منه أن يتخلى عن صفة الملك، و ذلك بطرد جميع وزرائه عنه، والتخلي عن جميع آلات السلطنة وأموالها، ووضعها بين يدي العباس، وبعد ثلاثة أيام، خرج إليه مولاي العباس و كان يوم الجمعة، ونادي الحاج محمد أسقيا، وأجلسه بمسجد مكة الشريفة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء، وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفا، وأشهد الجماعة الحاضرين على أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه فقد خالف الله تعالي ورسوله**[[52]](#footnote-53)**. كما يروي القاضي محمود كعت أيضا، أن الأسقيا محمد التوري، لما كان عائدا من الحج في طريقه إلى السودان ،التقي بالإمام جلال الدين السيوطي بالقاهرة، واخبره هذا الأخير، بأنه يعد من بين اثني عشر خليفة أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم. خمسه منهم(يقصد الخلفاء الأربعة مع الحسن بن علي) ظهروا بالمدينة، واثنان بمصر، وواحد بالشام، واثنان بالعراق، ولم يبق منهم إلا اثنان بأرض التكرور، و أن الحاج محمد أسقيا يعد واحد منهما**[[53]](#footnote-54)**. كما أخبره، بأن الخليفة الثاني عشر، والذي سوف يأتي من بعده في بلاد التكرور، ينتمي إلى نفس قبيلته التي تنتسب إلى (الطوردو)**[[54]](#footnote-55)** الذين تعود أصولهم الأولى اليمن، وأن عاصمته تكون كوكو (جاو)**[[55]](#footnote-56)**.

غير أننا لا نجد أثرا لهذين الخليفتين السودانيين في كتاب(تاريخ الخلفاء)، الذي ألفه السيوطي، والذي يشمل تاريخ خلفاء المسلمين، مما يجعل هذه الرواية المنسوبة للسيوطي تبدو غير أكيدة.

ومهما يكن، فإن الحاج محمد التوري، تصرف بعد عودته من الحج كخليفة للمسلمين، وقرر انتهاج قواعد الشريعة الإسلامية، وإتباع منهاج أهل السنة، حيث أخذ عن شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي علوم الفقه والعقيدة، وتعلم منه الحلال والحرام,، وآداب الشريعة وأحكامها، وانتفع بوصاياه ومواعظه.[[56]](#footnote-57) ومنذ ذلك الحين، أصبح الحاج محمد اسقيا، يعتبر نفسه خليفة المسلمين، وأصبح يتبع منهاج الخليفة العباسي في مجلسه، وملبسه، وسائر أموره، ومال إلى السيرة العربية، وانصرف عن بقايا سيرة العجم التي كانت عند ملوك السودان.**[[57]](#footnote-58)**

وقد انتشرت سيرة التشبيه بالخلفاء لدى ملوك السودان، إلى درجة أننا أصبحنا لا نفرق بينهم وبين أي خليفة عباسي آنذاك. فكان الملك يجلس في قصره الخاص، ومن حوله عدد كبير من الجواري والعبيد والخصيان والحرس والموظفين والكتاب والمستشارين والأمناء**[[58]](#footnote-59)**.

كما أصبح ملوك السودان يحرصون على أخذ البيعة من ولاتهم، وفروض الولاء وجمع الخراج وغيرها[[59]](#footnote-60). إذ أنه في عهد الإسقيين، و منذ عودة الحاج محمد اسقيا من الحج أصبح ينظم حفلا ومراسيم لتولي أي ملك جديد الحكم. ففي اليوم الذي ينصب فيه ملك جديد على سنغاي، يدخل هذا الأخير إلى القصر ويجلس على العرش، وتضرب الطبول أمامه، وتقدم إليه إشارات السلطنة، وهي عبارة عن قميص مزركش، ولباس على الرأس يشبه التاج، وأضيفت له تلك العمامة الخضراء والسيف والبردة التي كان شريف مكة قد خلعها على الحاج محمد عندما باركه خليفة على بلاد السودان، ثم يستقبل الملك الجديد الولاة، وقادة الجيش، ويصلي الظهر في المسجد، بعدها يقسم جميع موظفي الدولة الكبار، وأفراد العائلة المالكة، يمين الولاء والطاعة والإخلاص له، ويشهد على ذلك القاضي والعلماء.**[[60]](#footnote-61)** كما تأثر الاسقيا محمد توري بالنصائح التي زوده بها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد الأجوبة التي قدمها لأسئلته حول شؤون الحكم.

و حتى في بلاد الهوسا فقد تأثر ملوكها بالعلماء المسلمين و على رأسهم المغيلي الذي ساهم في إصلاح نظامهم السياسي، حيث قدم مجموعة من النصائح في شؤون الحكم لملك كانو محمد رمفا دونها في كتاب عنونه بما يجب على الملوك من حسن النية، و هي مدونة لشروط الحكم الإسلامي و ما يجب ان يتصف به الحاكم المسلم، و هذا بعدما راي من انتشار التقاليد الوثنية في ممالك الهوسا، كما ساهمت شخصيات علمية أخرى في إصلاح نظام الحكم في ممالك الهوسا حيث تشير المصادران هناك شخصيات علمية ساهمت في دعم السنة و انماط العيش و الحكم الإسلامية بكانو، منهم احمد بن عمر اتقيت التنبكتي، وهو جد احمد بابا التنبكتي، الذي دخل كانو و درس بها نحو سنة 1487م، و فيما بين 1504و1518 وصل عبد الرحمان سقين المغربي، و هو تلميذ ابن غازي المؤرخ، إلى كانو قادما من مصر و درس بها، و كان زميله مخلوف البلبالي (المتوفي بعد 1434م)، نشيطا هو الآخر في حقل التعليم بكانو و كتسينة، حيث قام هذان الشخصان بنشاط تعليمي كان له تأثير في الناحية السياسية بكانو حيث قاموا بقطع الأشجار المقدسة في عهد محمد رمفة**[[61]](#footnote-62)**.

**ب. الوزارة:**

يعد ابن بطوطة والعمري أهم مصدرين مكتوبين تطرقا إلى أكبر قدر من التفاصيل حول الوظائف والخطط التي عرفتها إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها في القرن الثامن للهجرة/14م، ورغم ذلك فإننا لا نجد من بين الوظائف التي ذكروها منصب وزير.(**[[62]](#footnote-63)**)ولكننا إذا تمعنا جيدا في تلك الوظائف فإن عددا منها يوازي منصب الوزير عند العرب المسلمين آنذاك، ولكنها تعطى لها أسماء أخرى. فحسب الروايات الشفوية فأن مملكة مالي كانت تضم وظائف تعادل وظائف الوزراء في إطار مبدأ تقسيم العمل، فكان هناك وزير يتكفل بالأجانب وآخر يتكفل بالضرائب وثالث يشرف على الشؤون الدينية وغيرهم.(**[[63]](#footnote-64)**)ولكنهم في الحقيقة كانوا كلهم عبارة عن مسؤولين عن القطاعات التي كلفوا بها أمام الوزير الأول الذي ينتدبه الملك بنفسه ويعدون تابعين له مباشرة.(**[[64]](#footnote-65)**)

وربما كان هذا الوزير الأول هو النائب الذي ذكره ابن بطوطة خلال وصفه لمجلسه بالمشور، وأن الفرارية هم الوزراء التابعين له، لكن ابن بطوطة لم يشر إلى وظيفة هذا النائب ولا الفرارية باستثناء ما ذكره عن كونهم أول من يدخل إلى مجلس الملك حاملين معهم فسين وكبشين، كما ذكر قيامهم بشكر الملك بنزع قسيهم لما وزع على الناس الذهب فوق رؤوسهم.(**[[65]](#footnote-66)**)وفي موضع آخر ذكر ابن بطوطة قصة رواها احد القضاة للملك، ومفادها، هناك جرادة تكلمت وقالت بأن الله يبعثها للبلاد التي يكثر فيها الفساد لإفساد زرعها، وهنا قام الفرارية ونزعوا عمائمهم كعلامة لتبرئهم من الظلم.(**[[66]](#footnote-67)**) فمن خلال كلام ابن بطوطة يظهر لنا المكانة الرفيعة التي يتمتع بها النائب والفرارية لدى الملك، من خلال الأسبقية التي تعطى لهم في دخول مجلسه، وهي مكانة لا ينالها عادة إلا الوزراء والمسؤولين الكبار في الدولة، كما نستنتج من نزع الفرارية لعمائمهم أمام قصة الجرادة وتبرئتهم من الظلم، أن هؤلاء الناس كانوا يشعرون بمسؤوليتهم على إقامة العدل ومحاربة الظلم في ربوع الإمبراطورية، وهي الوظيفة التي كان يضطلع ها الوزراء خلال العصور الوسطى.

وقد تكلم ابن خلدون عن رجل تولى الحكم في مملكة مالي مباشرة بعد مقتل منسا مغا ابن منسا موسى الثاني و هو زوج أم منسا موسى الثاني ويدعى صندكي الوزير(**[[67]](#footnote-68)**).فرغم أن كلام ابن خلدون لا يوضح إن كان صندكي هو اسم هذا الوزير، أم هو لقب خاص بكل من تولى الوزارة في مالي، إلا أن بعض المؤرخين استنتجوا من هذا بأن الوزير في عهد خلفاء سوندياتا كان يلقب بـ"صندكي" (Sandigui)، أوديون صندكي(Dyon sandigui).(**[[68]](#footnote-69)**)ورغم أن ابن خلدون يذكر في موضع آخر بأن الوزير كان يدعى عندهم ماري، ومنه اشتق اسم ماري جاطه(**[[69]](#footnote-70)**)، إلا أننا نجد بأن ابن خلدون يذكر في موضع آخر من نفس المصدر، بأن معنى ماري عند الماليين هو الأمير وليس الوزير.(**[[70]](#footnote-71)**)

لذلك فإننا نعتقد بأن الوزير الذي ذكره ابن خلدون لم يكن يلقب بماري جاطة على أساس الوظيفة، و إنما كان ذلك اسمه الشخصي. لكن الشيء الذي نفهمه من رواية ابن خلدون هو أن هذا الصندكي كان كثيرا ما ينفرد بأمور الدولة عندما يجد ملوكا ضعافا مثلما حدث في أواخر عهد منسا مغا.

وإذا رجعنا إلى الروايات الشفوية المندية فأننا نجد بان الوزير كان يدعى "فارما" وهي كلمة مندية مركبة من كلمتين هما فا (Fa) أوفار (Far) والتي تعني الأب أو الوالد، وكلمة ما(Ma) وهو اسم موصول يلعب دور ظرف المكان في اللغة المندية، ويعني مكان منخفض أو الأسفل(**[[71]](#footnote-72)**)، وبالتالي فيمكن أن يكون ابن بطوطة قد ذكر الفراري قاصدا بها فارما التي تعني الوزير، أو فار التي تعني الوالد أو الأب، خاصة وأنه لم يكن يتقن اللغة المندية، إذ كان يستعين بالترجمان لمخاطبة منسا سليمان.

وحسب الروايات الشفوية فإن الوزارات في مملكة مالي كانت متعددة، فهناك وزير الثقافة الذي يدعى "بابيلي فارما" ووزير الأملاك الذي يدعى "واني فارما" أو(دوغو فاما). أما وزير المياه على النيجر الذي يعد المسؤول على الصيد والملاحة به فيدعى"جيتيجي فاما"، كما وجد وزير الغابات الذي كان يطلق عليه اسم "ساو فارما" أو"تو فاما"، والوزير المكلف بالخزينة المدعو"خاليسي فارما" أو "فودي فاما".(**[[72]](#footnote-73)**)ونجده في بعض المصادر باسم سانتيجيوهو في الحقيقة أمين مخازن الغلال الملكية، والذي يعتبر بمثابة وزير المالية.(**[[73]](#footnote-74)**)ولهذا نعتقد بأن سانجييتي وصندكي الذي ذكره ابن خلدون، ما هو إلا تحريف لكلمة سانديكي التي تعني وزير المالية أو وزير المخازن الملكية، باللغة المالنكية. كما وجدت هناك وزارة مكلفة بالضرائب أيضا.(**[[74]](#footnote-75)**)

وقد عرفت سنغاي بعض الوزارات، التي تعود إلى فترة خضوع غاو لحكم أسرة كيتا، ومنها خالص فارما وهو وزير المالية، وزير البيض أو الأجانب وهو كوراي فارما، والوزير الأول أو نائب الإمبراطور وهو الأمين العام للإمبراطور ويدعى الكنفاري أو البالاما(**[[75]](#footnote-76)**)، ولكن وظيفة الوزير لم تكن تقتصر على تسيير أمور قطاعه وتنفيد سياسة الملك في القطاع الذي كلف به، وإنما كانت له مهمة إقليمية تضاف إلى مهمته الوزارية ألا وهي تقديم الاستشراف المستقبلية عن إقليم ما لأصحاب السلطات الإدارات المحلية من أمراء وحكام مقاطعات، وبذلك لعبوا دور الجسر الذي يربط بين الملك وحكام الإمارات التابعة إليه،(**[[76]](#footnote-77)**) لذلك قال عنهم ابن بطوطة بأنهم أمراء(**[[77]](#footnote-78)**)**.**

كما كان الوزراء يقومون بالترجمة لحكام المقاطعات الذين يأتون لزيارة الملك لما يكونوا من مناطق لا تتكلم لغته، بحيث يتولون مهمة شرح قضاياهم ومشاكلهم للملك**([[78]](#footnote-79))**.

**ب. أثرها في الميدان العمراني:**

أن ازدهار الحياة الثقافية و العلمية في غرب افريقيا تبعه ازدهار في الذوق الفني و خاصة الميدان العمراني، كما أن تفتح الافارقة على الثقافة العربية الإسلامية جعلهم يستمدون منها الكثير من الخصائص في المجال العمراني، لكنهم اثبتوا خصائصهم الابداعية في هذا المجال، فقد أصبحوا يتميزون عن غيرهم من الشعوب في هذا المجال، حيث تمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي ويحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كان بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، وذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة، كما كانت توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية.(**[[79]](#footnote-80)**)فكانت العاصمة نياني في عهد سوندياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين وأسقفها مصنوعة من القصب.(**[[80]](#footnote-81)**)وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار وحشائش النباتات، وفي مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان وهو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن.(**[[81]](#footnote-82)**)

لكن وصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324م، تعرف على مهندس وشاعر ومهندس أندلسي هو أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن(**[[82]](#footnote-83)**)فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني.(**[[83]](#footnote-84)**) وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، وهو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس(**[[84]](#footnote-85)**).

وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهاشه لوضعية مسجدها المتردية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش،(**[[85]](#footnote-86)**) لذلك نبه منسا موسى إلى أن هذه البناية لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، ولا ترقى إلى مقام الإمبراطور، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات ومساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة ولا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش(**[[86]](#footnote-87)**)، وطلب هذا الأمير الموحدي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.(**[[87]](#footnote-88)**)

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس.فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.(**[[88]](#footnote-89)**)

ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.(**[[89]](#footnote-90)**)

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذكانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،(**[[90]](#footnote-91)**) ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان،و بالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.(**[[91]](#footnote-92)**) فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،(**[[92]](#footnote-93)**)فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين.(**[[93]](#footnote-94)**)

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.(**[[94]](#footnote-95)**) وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر(أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة بتمبكتو.(**[[95]](#footnote-96)**) حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي.(**[[96]](#footnote-97)**)وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها(**[[97]](#footnote-98))**،مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحداثته بالنسبة للسودان الغربي.وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه،حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو.(**[[98]](#footnote-99)**)

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سوندياتا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو(Banco) باحترافية كبيرة،(**[[99]](#footnote-100)**)كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي(**[[100]](#footnote-101)**) الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة.

أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سُلَّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحا صغيرا محاط بحاجز مرتفع قليلا، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات(**[[101]](#footnote-102)**). بالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجا حقيقيا للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية(**[[102]](#footnote-103)**).

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضا زاخرا بالانجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.(**[[103]](#footnote-104)**)مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،(**[[104]](#footnote-105)**) وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.(**[[105]](#footnote-106)**)

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس وموراليس،(**[[106]](#footnote-107)**) قد أفرزت طرازا معماريا يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازا سودانيا خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.(**[[107]](#footnote-108)**)

لكن بعض المؤرخين الغربيين والمستشرقين لا يريدون الاعتراف بدور الساحلي في العمارة السودانية، وينكرون وجود ذلك الأثر المغربي فيها، ومنهم من يعتبر شخصية أبي إسحاق الساحلي شخصية وهمية ولا وجود لها، في محاولة لنفي أي تأثير عربي إسلامي في العمارة السودانية. فالأستاذة سوزان أراديون (Suzan Aradeon) تذكر بأن أبا إسحاق الساحلي هو مجرد أسطورة من وحي خيال المصادر التاريخية العربية التي اخترعتها، وانتشرت بعد ذلك عند الأوربيين. وتقول بأنه من يقول بوجود الأثر المغربي فهو جاهل بخصائص العمارة السودانية، فهي تحاول أن تقنعنا بأنها تريد الدفاع عن أصالة الفن المعماري السوداني، وتتهم هذه المصادر العربية بأنها تسعى إلى إثبات عجز السودانيين على ببناء شيء غير الأكواخ الصغيرة(**[[108]](#footnote-109)**). لكنها في المقابل لم تقدم لنا ولا دليل مقنع عن ادعائها سوى ذكر آراء المؤرخين الأوربيين الذين شكّكوا في دور الساحلي، فهي تستشهد بكلام شارل مونتاي (Charles Monteil)، لكن هذا الأخير لا ينكر وجود شخصية الساحلي، ولا ينفي ما قام به، لكنه ينسب للساحلي بناية واحدة وهي قاعة الاستقبالات في العاصمة نياني(**[[109]](#footnote-110)**).

كما نستشهد بما كتبه الدكتور الألماني هنري بارث(Henri Barth) وتقول بأنه يشكك في أسطورة الساحلي، لكننا لو عدنا إلى ما كتبه هنري بارث لوجدنا بأنها أوّلت خطأ كلام بارث بما يدعم فكرتها المسبقة، حيث لو رجعنا إلى ما قاله الدكتور الألماني فنجد ما يلي:« إن تمبكتو التي يبدو أنها استسلمت بدون مقاومة للفاتح (أي منسا موسى) تحولت إلى عاصمة لإمارة ذات عظمة ومكانة، لأن الزعيم الجديد، وهو رجل حيوي وصديق للفنون زوّد المدينة بمسجد وقصر جديد »(**[[110]](#footnote-111)**).

لهذا فنحن نعارض ما وصلت اليه الباحثة سوزان ارادون فبارث لم ينف ولم يشكك في شخصية الساحلي كما تدعيه الأستاذة أراديون، بل لم يذكرها أصلا، ولكنه ينسب بناء المسجد والقصر في تمبكتو لمنسا موسى على أساس أنه هو الإمبراطور صاحب الأمر والنهي، وصاحب السلطة التنفيذية في مالي، فلم يذكر من نفذ أوامره بالبناء، لكنه في المقابل نرى هناك تطابق كبير مع ما ذكره السعدي الذي يقول بأن منسا موسى بنا مسجد وقصر تمبكتو بعد ضمها إلى مملكته عند عودته من الحج سنة 1326م/726هـ(**[[111]](#footnote-112)**).

كما يذكر بأن هذا الإمبراطور كان صديقا للفنون، ونحن نعلم بأن ولعه بالفن هو ما جعله يتقرب من هذا المهندس الشاعر، ويصرّ على جلبه إلى بلاده.ومن الشواهد التي استندت إليها الأستاذة في نفي الأثر المغربي في العمارة السودانية كلام موريس دولافوس، لكننا نجدها هنا تتناقض مع ما ذهبت إليه، فهي تقول بأن دولافوس قد أشار إلى أن منسا موسى هو الذي طلب من الساحلي إدخال النموذج السوداني إلى العمارة السودانية وأن هذا الأخير(أي الساحلي) استوحى تفاصيلها من النموذج المغربي.(**[[112]](#footnote-113)**)

وبذلك يمكن أن نستنتج بأن ما ذهبت إليه الأستاذة سوزان أراديون لا يقوم على أية أسس علمية، ويبقى مجرد أحكام مسبقة خاطئة وتفنيد لأحداث تاريخية أكدتها كل المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية(**[[113]](#footnote-114)**)**.** فالمصادر العربية لم تنكر وجود عمارة سودانية، ولكنها تعترف بأنها كانت بسيطة وتفتقد إلى الرقي الذي وصلت إليه العمارة المغربية، وما إصرار منسا موسى على جلب المهندس الغرناطي إلى بلده إلا لمهمة البناء.

صحيح أن البناء الأول الذي قام به أبو إسحاق الساحلي والمتمثل في مسجد مدينة غاو كان باقتراح من الأمير الموحدي المعمر، لكن البنايات الأخرى التي أقامها في كل من تمبكتو ونياني كانت بطلب من منسا موسى. وهو ما يعني افتقاد مالي لمن يتقن هذا الفن، كما أن انبهار الملك منسا موسى بالانجاز الذي قام به الساحلي من خلال بنائه لتلك القبة المربعة بقصره في نياني، والسخاء الذي أبداه في مكافأته عليه لدليل على عدم وجود عمارة في مالي بذلك الرقي والإتقان، خاصة وأن ابن خلدون قد أكد ذلك بقوله: « لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل» (**[[114]](#footnote-115)**).

**3** ــ **المراسلات العلمية بين حواضر غرب إفريقيا و دورها العلمي و الثقافي :**

من بوادر النهضة العلمية التي شهدتها الحواضر العلمية و الثقافية في غرب افر يقيا تلك المراسلات التي تمت بين علماء و دعاة المنطقة و علماء و مصلحين من المشرق و المغرب الإسلاميين حول مسائل فقهية أو عقدية أو غيرها، بالإضافة إلى المبعوثون في مهام تعليمية إلى الحجاز و مصر. فلقد كانت هذه المراسلات تهدف إلى توجيه الدعاة و تدعوهم إلى المنهج القويم و السليم، كما تدعوهم إلى تصحيح الأفكار و العقائد و الممارسات المنحرفة الحاصلة في الدين ، كما تبين لهم طرق التعليم و مناهجها و سبل حل الخلافات بين المسلمين و آثارها السلبية على الأمة الإسلامية.

و من أشهر هذه المراسلات رسالة الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي لسلاطين بلاد التكرور عموما و بلاد كاتسينا في الهوسا خصوصا، و قد ضمنها الوصية بتقوى الله و الثناء عليه والتذكير بالآخرة، و عدم الاغترار بالدنيا و زينتها، و الوقوف إلى جانب الشريعة و إنكار المخالفات الشرعية التي انتشرت في بعض بلادهم**[[115]](#footnote-116)**.

و ذكر محمود كعت في تاريخ الفتاش أن الأسقيا محمد توري لما كان عائدا من الحج التقى بمصر بالسيوطي سأله عن قضايا فكانت إجاباته موافقة لإجابات علماء السودان الغربي الذين كان الأسقيا قد سألهم مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي**[[116]](#footnote-117)**. كما كانت للسيوطي مراسلة أخرى للمغيلي شملت تحر يم علم المنطق بينما رد عليه المغيلي برسالة يحلل فيها المنطق و يرد عليه و ختمها بقصيدة شعرية في هذا الرد**[[117]](#footnote-118)**.

و في السودان الأوسط فقد جرت مراسلات بين الشيخ محمد الأمين كانمي سلطان كانم والشيخ عثمان دان فوديو خليفة المؤمنين بسوكوتو، حيث دارت مواضيع المراسلات بينهما حول حكم الجهاد في بلاد الهوسا و كانم بورنو، علما بأن الكانمي درس في المدينة المنورة والقاهرة و فاس، وذاع صيته ببلاد السودان الأوسط، و أصبح له تأييد و نفوذ و تأثير كبير على الناس، و كان يرى بأن لجو الشيخ عثمان دان فوديو إلى الجهاد في صفوف المسلمين الذين كانوا خاضعين للممالك الوثنية يضر بالمسلمين و ينحرف عن رسالة الإسلام الحقيقية، بالاضافة إلى واجبه للدفاع عن بلاد كانم بعدما احتلتها قوات عثمان دان فوديو فكانت بينهما حروب بالبنادق و السيوف و حروب بالقلم عن طريق المراسلات التي حملت مناظرات علمية ودينية. فلقد بلغت تلك المراسلات عشرات الرسائل و دامت ست سنوات دافع فيها كل واحد منهما عن مواقفه، و لقد ساهمت تلك المراسلات بينهما في تصحيح الكثير من المفاهيم مستندين إلى الكتاب و السنة**[[118]](#footnote-119)**.

1. (**1) السعدي(عبد الرحمان**)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس،1964، ص12. [↑](#footnote-ref-2)
2. **()** **عز الدين عمرو موسى**، دراسات إسلامية غرب افريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، طبعة ثانية، ص115. [↑](#footnote-ref-3)
3. **()** اذا اخذنا برواية كل من ابن خلدون و دولافوس فسوندياتا يكون قد عاش بين 1190 و 1262م، ذلك أن دولافوس يقول بانه ولد سنة 1190، و انه تولى الحكم سنة 1235 أي بعد انتصاره على الصوصو في معركة كيرينا، بينما يقول ابن خلدون انه حكم 27سنة، و بهذا تكون فترة حكمه بين 1190 و 1262م. [↑](#footnote-ref-4)
4. **(6)** **Devey (Muriel**) , La Guinée ,Editions Karthala, Paris, 2009.p285. [↑](#footnote-ref-5)
5. **()نور الدين شعباني**، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5و10هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012.2013م، ص 279. [↑](#footnote-ref-6)
6. ()**قداح نعيم**، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م.، ص 160. [↑](#footnote-ref-7)
7. **() نفسه**، ص ص 158 ـ 159. [↑](#footnote-ref-8)
8. () **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، ***مجلة البيان الالكترونية***، العدد228، موقع الكتروني: *http://www.albayan.co.uk.*  تاريخ الاطلاع عليه: يوم لخميس 22 جمادى الأول 1439 هـ - الموافق لــــــ ـ08/02/ 2018م [↑](#footnote-ref-9)
9. () **باري (محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم**)، المسلمون في غرب إفريقيا ، تاريخ وحضارة.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2007م، طبعة أولى،، ص 105 . [↑](#footnote-ref-10)
10. () **حسن الوزان**، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ص 263. [↑](#footnote-ref-11)
11. ) ( **Cuoq (Joseph)** ,Op.Cit. p91. [↑](#footnote-ref-12)
12. () انظر المصدر السابق، ص 691. [↑](#footnote-ref-13)
13. ()**البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)،** فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة أولى،1981م،ص 88. ــــ السعدي، المصدر السابق،ص 27 . [↑](#footnote-ref-14)
14. (**4**) **باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد ابراهيم)،** المرجع السابق، ص 105 [↑](#footnote-ref-15)
15. (**5**) **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص 161 . [↑](#footnote-ref-16)
16. )( **Cuoq (Joseph)** ,Op.Cit. p126. [↑](#footnote-ref-17)
17. () **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص 161. [↑](#footnote-ref-18)
18. () **باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)**، المرجع السابق، ص 105 . [↑](#footnote-ref-19)
19. () **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، مرجع سابق. [↑](#footnote-ref-20)
20. () **معتز ياسين**،جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في ***مجلة الوعي الإسلامي***، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد523. [↑](#footnote-ref-21)
21. () **باري(محمد فاضل) وكريدية(سعيد إبراهيم**)، المرجع السابق، ص 105 . [↑](#footnote-ref-22)
22. () **معتز ياسين**، المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-23)
23. ()**البرتلي الولاتي**، فتح الشكور، ص 176. [↑](#footnote-ref-24)
24. () **السعدي**، المصدر السابق، ص 57**. ،** ـ Yattara el Mouloud ,Op.Cit [↑](#footnote-ref-25)
25. () **أحمد بابا التنبكتي**، نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1989م، جزءان، ص 608. [↑](#footnote-ref-26)
26. ()المصدر السابق، ص 681 . [↑](#footnote-ref-27)
27. () **معتز ياسين**، المرجع السابق. [↑](#footnote-ref-28)
28. () نفسه. [↑](#footnote-ref-29)
29. ()**عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق. [↑](#footnote-ref-30)
30. () **محمود كعت**، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس.طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية و الشرقية، باريس، 1964م، ص 180. [↑](#footnote-ref-31)
31. () **عبد القادر زبادية**، « القرن 16 وحركة التعليم في تنبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب »، مجلة ***المؤرخ العربي***، العدد 14، (1980)، ص 224. [↑](#footnote-ref-32)
32. () **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق [↑](#footnote-ref-33)
33. () بوعزيز ،المصدر السابق، ص 255. [↑](#footnote-ref-34)
34. (**3**) نفسه، ص 199. [↑](#footnote-ref-35)
35. **() قداح نعيم**، حضارة الإسلام و حضارة اوربا في افريقيا الغربية، مرجع سابق، 161. [↑](#footnote-ref-36)
36. # () ليلى صباغ، أحمد بابا التكروري (963- 1036هـ/ 1556- 1627م)، موقع الكتروني:

    # *https://www.arab-ency.com/ar*

    [↑](#footnote-ref-37)
37. **() د. آدم أديبايو سراج الدين** ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، ***مجلة قراءات افريقية***،مجلة ثقافية فصلية محكَّمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد الخامس عشر، محرم - ربيع الأول 1434 ه ، يناير - مارس 2013 م، ص 82 و ما بعدها [↑](#footnote-ref-38)
38. [↑](#footnote-ref-39)
39. (**1**) زبادية، المرجع السابق، ص 77. [↑](#footnote-ref-40)
40. () نفسه. [↑](#footnote-ref-41)
41. ()**آدم أديبايو سراج الدين** ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، مرجع سابق، ص85. [↑](#footnote-ref-42)
42. () **آدم أديبايو سراج الدين** ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية ، مرجع سابق،ص 87. [↑](#footnote-ref-43)
43. () **نفسه** [↑](#footnote-ref-44)
44. () **جمال بامي**، احمد بابا التنبكتي، موقع الكتروني: ***https://www.maghress.com/almithaq/6676*** [↑](#footnote-ref-45)
45. () **جمال بامي**، مرجع سابق. [↑](#footnote-ref-46)
46. **() بوبكي سكينة**، الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن19م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامي، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2008/2009م، ص ص من 72 الى 74. [↑](#footnote-ref-47)
47. **(1)العمري(أحمد السويلم)،** **العمري (أحمد السويلم)،**  الإفريقيون والعر ب لقاهرة، 1967م ،ص66. [↑](#footnote-ref-48)
48. ()**البكري**، المصدر السابق، ص 182. [↑](#footnote-ref-49)
49. **()** **طقوش (محمد سهيل**)،التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص 359. [↑](#footnote-ref-50)
50. () **التازي (عبد الهادي**)، المغرب في خدمة التقارب الافريقي العربي. في كتاب: ***العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية***، الصادر عن المنظمة العربية للثقافة و العلوم،تونس،1985م.، ص 106. [↑](#footnote-ref-51)
51. () **السلاوي**، المصدر السابق، ص 48. [↑](#footnote-ref-52)
52. **()المصدر السابق** ، ص 12. [↑](#footnote-ref-53)
53. **()** **كعت،** المصدر السابق، ص 13. [↑](#footnote-ref-54)
54. () هذه الكلمة بلغة (الفلاتة)، و تدل على شخص ينتمي إلى هيأة أو حزب أو جماعة تأسست في منطقة (فوتا جالون) والتي معناها، الأشخاص الذين يشتركون في الصلاة،، وقد استعملت من طرف السودانيين للدلالة على المسلمين المخدرين من فوتا السنغالية أو (فوتا تورو). في **الهامش Houdas et Delafosse** ,Tarikh el Fettache, P9,

    ـ و تعد (فوتا جالون) منطقة و هضبة موجودة حاليا في شمال غرب جمهورية غينيا، تقع بين مدينتي (لابه) و (بوكي) الغانيتان.مجموعة من الأساتذة على رأسهم :نقولا زيادة:أطلس العالم. مكتبة لبنان، بيروت،1417هـ،13.

    (**4**)**كعت**، المصدر السابق،ص13. [↑](#footnote-ref-55)
55. (**5**) **السلاوي (أبو العباس الناصري)،** الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. (ثلاثة أجزاء). تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م ، ص 48.

    (**6**) نفسه. [↑](#footnote-ref-56)
56. (**7**) **الوزان (حسن**، المصدر السابق، ج2، ص 169. [↑](#footnote-ref-57)
57. [↑](#footnote-ref-58)
58. **)1( Deschamps (Hubert)** , L’Afrique Noire précolonial. Presses universitaires de France, Paris, 1962,PP 52et 53 [↑](#footnote-ref-59)
59. . **(2) زبادية**، المرجع السابق، ص 63. [↑](#footnote-ref-60)
60. [↑](#footnote-ref-61)
61. **() مهدي ادامو،** الهوسا و جيرانهم بالسودان الأوسط، في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، الصادر عن اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص296 [↑](#footnote-ref-62)
62. () يذكر **القلقشندي** (، ص298) بأن هذه المملكة كان يوجد فيها الوزراء والقضاة والكتاب، ويقول بأنه نقل ذلك عن كتاب مسالك الأبصار للعمري، لكننا لم نجد وظيفة بهذا الاسم عند العمري. **(القلقشندي(أبو العباس أحمد)،** صبح الأعشى في صناعة الانشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1333هـ/1915**م.** [↑](#footnote-ref-63)
63. ) (**Bwemba-Bong** ,Quand l’Afrique était l’or noire de l’europe,volume1,éditions Menaibuc, 2005,p26 ـ **Joseph K i-Zerbo et René Holenstein** , A quand l’Afrique . Éditions de l’ambe, 2003, p76 . [↑](#footnote-ref-64)
64. )(**ONESCO** , Histoire de l’humanité (600-1492). Editions Unesco, Paris, 2008, p1171 [↑](#footnote-ref-65)
65. () المصدر السابق، ص 685، 687. [↑](#footnote-ref-66)
66. ()نفسه،ص688. [↑](#footnote-ref-67)
67. ()ـ **ابن خلدون(عبد الرحمان)،** كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ /2000م. مج6، 270. [↑](#footnote-ref-68)
68. **(**) **طرخان (إبراهيم علي)،** دولة مالي الإسلامية.دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973، ص 129. [↑](#footnote-ref-69)
69. () المصدر السابق، مج6، ص 269. [↑](#footnote-ref-70)
70. ()نفسه، ص 266 . [↑](#footnote-ref-71)
71. ) (**Delafosse(Maurice)** , Essai de manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, p12. [↑](#footnote-ref-72)
72. )( **Niane Temsir Djibril**, Recherches sur l’empire du mali au moyen âge, mémoire de l’institut national de recherche, Conakry, La Guinée, 1962, p55, [↑](#footnote-ref-73)
73. ()**جبريل تمسير نياني،** مالي و التوسع الثاني للمندينغ، ص17. [↑](#footnote-ref-74)
74. () **Bwemba-Bang** , Op.Cit,p28. [↑](#footnote-ref-75)
75. ()**جبريل تمسير نياني،**مرجع سابق، ص172 . [↑](#footnote-ref-76)
76. )(**Joseph k i-Zerbo et René holenstein** , Op.Cit, p76. [↑](#footnote-ref-77)
77. ()**المصدر السابق**، ص 682. [↑](#footnote-ref-78)
78. ) (**Bwemba-Bong**, Op.Cit, p26.  [↑](#footnote-ref-79)
79. ()**زبادية(عبد القادر)،**  الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء.( دراسات ونصوص). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 52. [↑](#footnote-ref-80)
80. )( **Mauny(Raymond)**, Les siècles obscurs Op.Cit, p160. [↑](#footnote-ref-81)
81. () **باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم**)، المرجع السابق، ص 98 . [↑](#footnote-ref-82)
82. () هو أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي والطويجن، وهو من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة، وكان من أهل العلم فقيها متفننا، وله الباع المديد في الفرائض، كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة، وجال ببلاد المغرب، ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق، ودخل اليمن والحجاز، وعاد إلى مصر، ثم سار إلى بلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا، بالغا فيها أقصى مبالغ المكانة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتنى مالا دثر. (العسقلاني(ابن حجر): الدرر الكامنة،ج1،ص211.) ويذكر دولافوس بأنه توفي بتمبكتو خلال فترة حكم منسا سليمان سنة 1346م (Haut Sénégal-Niger,t2,p190). [↑](#footnote-ref-83)
83. () **السلاوي (أبو العباس الناصري)**، الاستقصا، مصدر سابق، ،ص ص74و 75. [↑](#footnote-ref-84)
84. ()**ابن خلدون**، المصدر السابق، ج6،ص 267 . [↑](#footnote-ref-85)
85. ()ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت مبنية وسقوفها بالأخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمل. (المصدر السابق، ص111) [↑](#footnote-ref-86)
86. ()**قداح نعيم،** افريقيا الغربية في ظل الإسلام**،** المرجع السابق، ص112 . [↑](#footnote-ref-87)
87. )( **Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard)** , Les Nègres. Editions l’harmattan, Paris, 2005, pp 22 e t23 ;- **Delafosse(Maurice)** , Haut Sénégal-Niger, tome2, p189. [↑](#footnote-ref-88)
88. )( **Ogunsolo(John Igué)** , Les villes précoloniales d’Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36. [↑](#footnote-ref-89)
89. ()**ابن خلدون**، المصدر السابق، ج6 ،ص 268 ـ ـــــــــــــــ ،. ا**لسلاوي**، المصدر السابق، 152 . [↑](#footnote-ref-90)
90. () **بن قربة(صالح)،** المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100. [↑](#footnote-ref-91)
91. (**)السعدي**، المصدر السابق،ص ص 20 ،21 . [↑](#footnote-ref-92)
92. )( **Cornevin(Robert et Mariane),** Histoire de l’Afrique, Op0Cit, p164. [↑](#footnote-ref-93)
93. ()**السعدي،** المصدر السابق، ص 87 . [↑](#footnote-ref-94)
94. () يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّر الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. ( تاريخ السودان، ص 56 ). [↑](#footnote-ref-95)
95. **) (Cornevin(Robert et Mariane),** Op.Cit, p164.

    =يذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى إلىمستوى حتى تلك القبور  والاضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جنيالقديم**. Dubois (Felix)**

    Timbuctoo the mysterious.Translated from the frensh by : Diana White, New York, 1896, p275. [↑](#footnote-ref-96)
96. ) ( **Ogunsolo(John Igué)** ,OpCit, p41. [↑](#footnote-ref-97)
97. **)( Dubois)Felix**( ,Op Cit,p275. [↑](#footnote-ref-98)
98. () **Mahmoud kati** , OpCit, p56. [↑](#footnote-ref-99)
99. () **Niane djibril temsir**, Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p134. [↑](#footnote-ref-100)
100. ()يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107). [↑](#footnote-ref-101)
101. ) (**Niane djibril temsir** , Le soudan occidental, p130. [↑](#footnote-ref-102)
102. () **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص147 . [↑](#footnote-ref-103)
103. ()**المصدر السابق**، ص 690 . [↑](#footnote-ref-104)
104. ()البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23كيلومترا

     **Mauny (Raymond**) , les siècles obscurs , p160. [↑](#footnote-ref-105)
105. () **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص 150 . [↑](#footnote-ref-106)
106. )( **Delafosse (Maurice) et Mouralis (Bernard)** , Les Nègres,p23. [↑](#footnote-ref-107)
107. ) (**Trimingham (Spencer)**, Op.Cit, p69. [↑](#footnote-ref-108)
108. **() Suzan B.Aradeon: Al-Sahili** (The historians Myth. of architectural technology tranfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Anneé1989, Volume 59, N°01, p99 [↑](#footnote-ref-109)
109. ()**Charles Monteil,** Les empires du Mali, p86. [↑](#footnote-ref-110)
110. () **Henri Barth** , Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a.Traduction de l’Almand par :Paul Ithier. Edité par :A.Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855 pp14, 15. [↑](#footnote-ref-111)
111. () **السعدي**، تاريخ السودان، ص ص7و 87 . [↑](#footnote-ref-112)
112. **() Suzan B. Aradeon**, Op.cit. pp99, 100. [↑](#footnote-ref-113)
113. ) (**Raimbault (Michel) et Kléna (Songo)**, Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991. [↑](#footnote-ref-114)
114. ()**ابن خلدون**، المصدر السابق، ج6 ،ص 268 . [↑](#footnote-ref-115)
115. **() هارون المهدي ميغا**، المراسلات العلمية و آثارها التعليمي،و الدعوي بغرب إفريقيا، ***مجلة قراءات افريقية***، العدد الثالث، ديسمبر 2008م، ص 3. [↑](#footnote-ref-116)
116. **() محمد بن عبد الكريم المغيلي،** أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص ص 6،7،8. [↑](#footnote-ref-117)
117. **() احمد بابا التنبكتي**، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، مصدر سابق، ص332. [↑](#footnote-ref-118)
118. **() هارون المهدي ميغا**، المراسلات العلمية، مرجع سابق، ص6. [↑](#footnote-ref-119)